المسيرة
النجوى
Issue No.1458 May 26, 2014

زملائي في الجبل يتضوّرون جوعًا

اليسوعيون والحرب العالمية الأولى: تقارير عمرها مئة عام

ريتا عازار

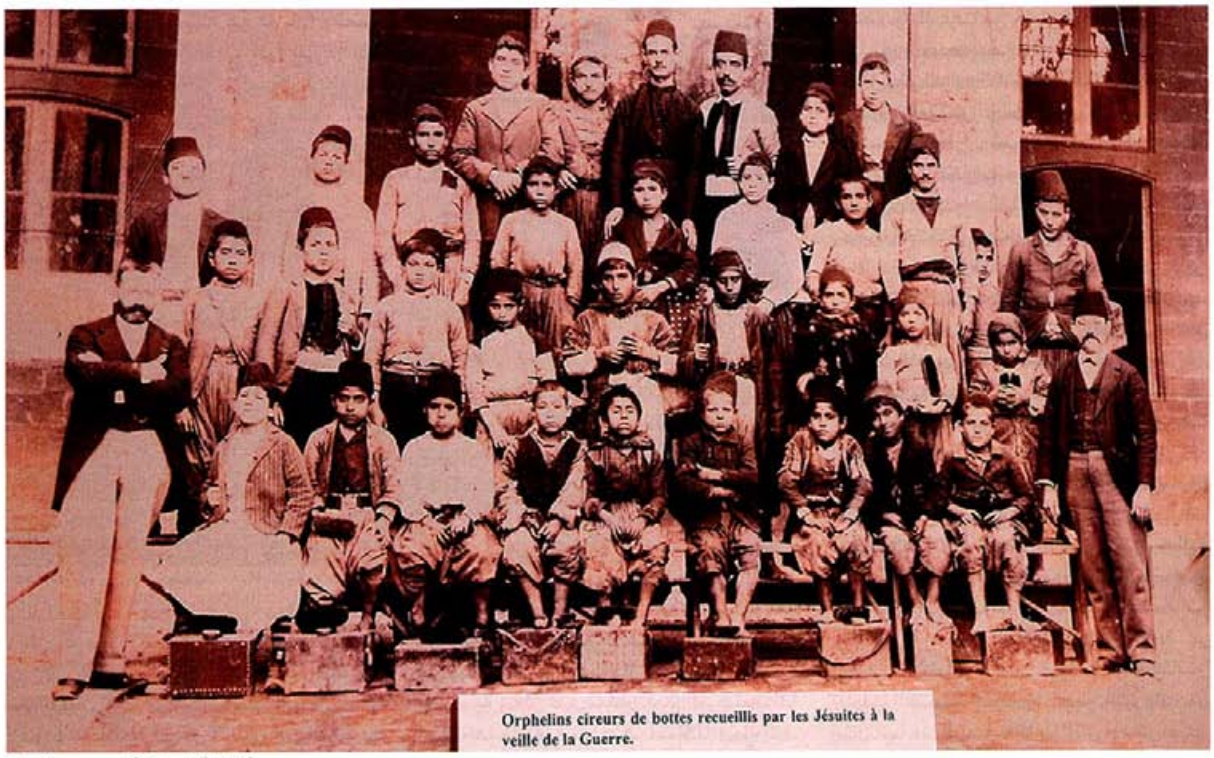

أطفال أيتام مات أهلهم بسبب المجاعة

ترميم الزجاجيات الملونة العائدة للقرن التاسع عشر، في كنيسة مار يوسف للآباء اليسوعيين في بيروت، أدخلت الأب اليسوعي بيار فيتوك وأستاذ مادة التاريخ كريستيان توتل أروقة الأرشيف العتيق، وعلى مدى ثلاثة أعوام، ترافقا وعتّ الزمان، تعبا، قرآ مراسلات ويوميات ولوائح، لم يعثرا على رسم أو وصف للزجاجيات، بل تعثّرا بتاريخ الحرب العالمية الأولى بأقلام أباء يسوعيين دونوا بها الأيام العصيبة، وكانت فكرة توتل إقامة معرض لمناسبة مرور مئة عام على بداية الحرب العالمية الأولى، وكانت الموافقة والدعم، واستمر العمل الدؤوب حتى أنطلق معرض «اليسوعيون والحرب العالمية الأولى 1914-1918»، في 16 أيار، في قبو الكنيسة. كل تلك الحرب هنا بالكلمات والرسائل والأرقام وبعدد من الصور. الجوع هنا، والظلم والإعتقال والتعذيب والنهب والجراد والنفي واليتم والشنق، حقبة موجعة من تاريخ لبنان، دوّنها الأباء اليسوعيون، تحتضنها حجارة عتيقة. مئة عام مرت! وعند القراءة والاستعراض ألم اللبنانيين حاضر وتضحيات اليسوعيين جليّة.

على جدران القبو نحو مئة وثمانية صور عن مخطوطات ومراسلات وجردات ولوائح وخرائط، ونحو خمسين صورة فوتوغرافية لو لم يطرد الراهبان اللذان التقطاها، بعد عام ونصف العام من الحرب، لكان عددها أكبر بكثير. النسخ الأصلية في الواجهات الزجاجية المنتشرة في المعرض، نحو 400 مخطوطة، تلاعبت بها الأعوام اصفراراً وإنهاكاً ولكنها لم تنل من حبرها وحكاياتها.

أستاذ مادة التاريخ في جامعة القديس يوسف كريستيان توتل، يحكي لـ«المسيرة» أنه من المخطوطات التي أثرت فيه: «هي Dier أي أجندة،

Select info S.A.L.
"Only Your Selected Information"

المسيرة
النجوى
Issue No.1458 May 26, 2014

يقرأون الصحف في بداية الحرب العالمية الأولى (تصوير رندا شرابية)

وثيقة لبنانية ـ سورية في الكتاب الذهبي للجيش الفرنسي

يوميات، كان كل أب يسوعي يكتب بشكل يومي ما الذي حصل معه. لكن بين العامين 1915 و1916 ما عادوا يوقعون اليوميات، خوفاً من الإعتداء عليهم. هنالك ملفان يؤثران بي كثيراً: الأول رسالة مرسلة من أحد الآباء اليسوعيين إلى فرنسا، عدنا وطلبناها، يقول فيها «إنهم ما عادوا يوقعون رسائلهم ويومياتهم لأن عدداً من الأباء قبض عليهم، وتعرضوا للضرب، وبعضهم سحبوا إلى محاكم عرفية».

ويرد في مقطع من رسالة للأب كاتان اليسوعي بتاريخ 18 أيلول 1916 ما يأتي: «نعاني من ارتفاع أسعار المواد الغذائية ونقص المال. هذا وشُنق الأب ميزاريي، أمين سرّ المونسينيور دوماني». الأب كاتان كتب أن سبب الشنق كانت رسالة موجهة إلى الأب المشنوق من شخص يحكي بطريقة فجة عن تركيا، (...) ويا ويل من وجهت إليه تلك الرسالة التي فيها أي إشارة غير مناسبة لتركيا، السجن والضرب مصيره وإساءات متنوعة». إذا أي رسالة أي مخطوطة تحمل أي إتهام للعثمانين في تلك المرحلة، كان أصحابها يسجنون فوراً ويضربون، وإن حالفهم الحظ يظلون في السجن، وإلا يختفون. مع أن تلك الرسائل كان يكتبها رهبان في الستين والسبعين من عمرهم أي أنهم لا يشكلون خطراً فعلياً على الدولة العثمانية، كما يقول توتل. «إنه حكم الرعب بامتياز، والآباء اليسوعيون الذين كانوا يساعدون اللبنانيين بكل الوسائل، عن طريق تأمين الطعام والمخبأ، طالهم الأذى بشكل كبير».

الأب أليكس باسيلي معاون الرئيس الأقليمي والمسؤول عن الأرشيف تؤثر به كثيراً لائحة طويلة تسجل أسماء المتوفين، «أكثر ما يلفت فيها سبب الوفاة الجوع، الجوع، الجوع، الجوع لا يترك أثراً في الدم بينما القتل يفعل، تركوهم يموتون من الجوع، وكانوا يخبرون بأنهم كانوا يذهبون إلى البحر يستقدمون ماءه حتى يصنعوا الخبز، هذا أثر بي كثيراً، كما تأثرت كيف كان الأهل يبحثون في القمامة لإطعام أولادهم».

من الوثائق وثيقة تحكي بلا بروتوكول ما

إنها المرة الأولى في لبنان تفتح فيها صفحة الحرب العالمية الأولى بهذا الشكل الجدي والعميق

الذي يحصل: الزيت والقهوة والصابون مقطوعون، واللحم مقطوع، نصنع الخبز بمياه بحر بيروت. وأخرى تحمل أول إشارة مكتوبة عن المجازر التي تعرض لها الأرمن : «يخيل إلي أن الحسابات السياسية العثمانية تهدف إلى إضعاف المسيحيين بشكل عام واللبنانيين بشكل خاص عبر تجويعهم عوضًا عن ارتكاب المجازر في حقّهم كما حصل في أرمينيا». وقد وردت هذه الجملة في رسالة تعود إلى العام 1915 كتبها أب يسوعي، لم يوقّع اسمه، كان من المفترض أن ترسل إلى الخارج ولكن ذلك لم يحصل.

ومن أول الحرب، ثمّة رسالة موجهة من الآباء اليسوعيين إلى الحاكم العثماني في بيروت والموجود منها المسودة، يقولون له فيها: «نحن لم نعتد عليكم، نحن رجال دين، عملنا أن نطعم الجياع، أن نطعمكم أنتم إن جعتم واللبنانيين إن جاعوا، لا تعتدوا علينا، لا تطردونا، نحن عملنا الدفاع عنكم».

ولكنهم طردوهم عندما حصل إلغاء الامتيازات للإرساليات، عندما اندلعت الحرب اتهمت الإرساليات وبشكل خاص اليسوعيين بأنهم حلفاء فرنسا في لبنان، ولذا ألغيت الامتيازات وقرار الإلغاء هذا معروض ومهم جداً، ومن ضمن هذا الإلغاء أقفلت بيوت الآباء اليسوعيين كمرحلة أولى، ومن ثم طردوهم وبعد ذلك كان النهب، نهبت الكتب والكنائس والمطابخ والاسطبلات والمدارس والجامعة.. كل شيء، والمسروقات كلها مدونة بشكل يومي ومفندة وعلى سبيل المثال نورد: «ساعات حائط 2، أبواب، 40 ألفاً و933 كيلو قمح، 18 ألف كيلو شعير....»

يوم الأحد 8 تشرين الثاني 1914، أي بعد أيّام قليلة من بدء العام الدراسي، أمر قائد وعناصر الشرطة العثمانية رئيس جامعة القديس يوسف، الأب جيرار دو مارتنبريه اليسوعي، بـ«إخلاء الدير في غضون ساعتين وتسليمه المفاتيح». وكان هناك سبعون إكليريكيًا وثلاثمئة تلميذ وستّون رجل دين. توجّه الأب الرئيس في اليوم نفسه إلى والي بيروت في محاولة لتأجيل تنفيذ القرار لكنّ الوالي أجابه ببرودة: «أنا مستاء ممّا يحصل معكم لكن، ولحظكم العسير، أنتم حلفاء أعدائنا التقليديين، ونحن في حالة حرب...».

وثائق ومخطوطات تاريخية

خوابي نبيذ كسارة للآباء اليسوعيين

Select info S.A.L.
"Only Your Selected Information"

المسيرة
النجوى
Issue No.1458 May 26, 2014

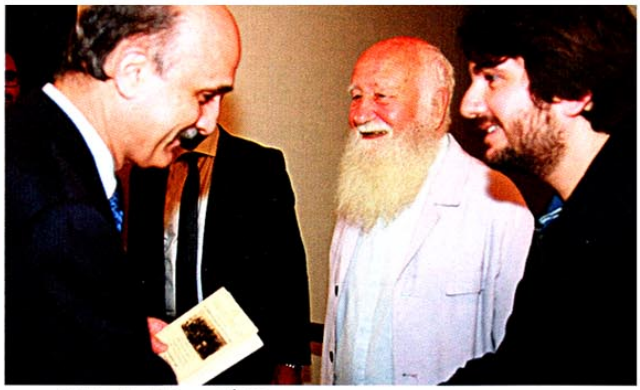
توتل يُسلم دعوة افتتاح المعرض للدكتور جمعج

النائب نديم الجميل وعماد واكيم وتوتل في يوم الافتتاح

في آب 1916 احتلّ الهلال الأحمر العثماني و«الدفاع المدني» جامعة القديس يوسف، وأخذوا أغراض المنامة والأثاث. وأقفلت كنيسة القديس يوسف اليسوعية، كما سُرقت آلات المطبعة الشرقية ومعدّاتها، وصودرت المؤن كالتي كانت مخبّأة في بيروت. على سبيل المثال، تعرّض دير تعنايل إلى النهب والتخريب والحرق. بعد هجر ممتلكات تعنايل، استفاد الأتراك، إذ قطعوا أشجار الدردار فيها كافّة، علمًا بأنّ الطلب كان مرتفعاً على خشب الدردار لتصنيع عجلات حاملات مدافع الجيش العثماني.

الأمر نفسه حصل في مدرسة مار يوسف عينطورة للآباء اللعازاريين: «كنيستنا، كنيستنا الجميلة، حوّلت إلى مطبخ، وأشعلت المواقد على الطريقة العربية على المذابح. وفي ذلك همجية غير مبرّرة، إذ إنّ المدرسة تضمّ مطبخاً رائعاً قادراً على إطعام 600 شخص. يختبئ زملائي في الجبل حيث يتضوّرون جوعاً».

وفي رسالة مؤرخة بتاريخ 7 ايلول 1916 يؤكد رئيس مدرسة عينطورة اللعازارية أن «المجاعة المنهجة لا تزال تفعل فعلها. يبيع الأتراك رطل الطحين بـ12 فرنكاً، لكن إذا قرر أحد شراءه، يستشعر الأتراك توفر المال على الفور فيطلبون 30 فرنكاً. احتل ضباط أتراك المدرسة التي باتت مكان سكن 300 طفل أرمني، قتل الأتراك ذويهم في المجازر، وُحوّلوا الى أتراك بالقوة».

أمّا في كسارة، فقد دُمّر المرصد والأقبية بالكامل، ولم تعد المكتبة موجودة. وكذلك في غزير وبكفيا حيث تعرّضت الأديرة إلى أضرار كبيرة، حتّى إنّ العثمانيين أخذوا الأبواب والنوافذ. وفي حمص وحلب، «اختفى كلّ شيء إلاّ جدران الأديرة».

وفي المعرض مخطوطة أساسية مركزية موقعة من فرنسوا جورج بيكو، لم يكن بعد في المركز الدبلوماسي الذي عرفه اللبنانيون به، وجه رسالة في العام 1915، يقول فيها للآباء اليسوعيين: «كإشارة أمل عما قريب سيرفرف العلم الفرنسي على سوريا»، وفعلاً وصل الجيش الفرنسي إلى جزيرة أرواد، لكنهم توقفوا هناك، ومن دخل بيروت في العام 1918 كان الجيش الإنكليزي.

هناك يوميات ومخطوطات تحكي بالتواريخ ما الذي حصل بسبب الجراد وثمة جملة يقول فيها الأب الذي كتب: «حتى حرب شاملة مدمرة لم تكن لتترك هذا الأثر (...) ما عدنا نرى إلا النواة، صقيع إلى 20 درجة تحت الصفر لم يكن ليسبب هذا الخراب».

من بين الوثائق أيضاً خريطة للمناطق التي طالها وباء الملاريا، الذي وصل إلى لبنان من الجيوش المتنقلة التي تدخل إلى المناطق وتحمل العدوى، كما مع من تعرضوا للإضطهاد والهرب كالأرمن الذين حملوا بسبب التشرد أمراضًا معهم إلى لبنان.

دانيال طرابلسي، طالب تاريخ في السنة الثالثة، أشار لـ«المسيرة» الى أن ما لقيه فظيعاً هو عدد الضحايا، من الجراد والجوع والحرب وأيضاً الأمراض وليس الملاريا فقط، وأسعار المواد الأساسية التي ارتفعت، والفلاحون الذين بالعادة كانوا يأكلون مما يزرعون ما عادوا يستطيعون ذلك لأن الجراد أكل محصولهم، لم يبق شيء للبنانيين مما يشير إلى المأساة الكبيرة التي حصلت أبان تلك الحرب. والمؤسف ان كتب التاريخ التعليمية لا تتحدث كثيراً عن ذلك.

طرابلسي هو أحد الطلاب الثلاثة الذين اختارهم توتل للعمل في التحضير للمعرض، وإليه هنالك الطالبتان سناهين كسابيان وغنى برهوش.

من الصور الفوتوغرافية في المعرض مدرسة في الهواء الطلق خلال الحرب، وصورة نادرة للجيش التركي في الجامعة بعد طرد الآباء واحتلالها وجعلها مركزاً عسكرياً له، وكانوا من وقت لآخر يعطون دروساً باللغة التركية للبنانيين المسلمين الموجودين في الأحياء القريبة، وفي الصورة عناصر عسكرية عثمانية مع مدنيين لبنانيين.

الحسابات السياسية العثمانية كانت تهدف إلى إضعاف المسيحيين بشكل عام واللبنانيين بشكل خاص عبر تجويعهم عوضًا عن ارتكاب المجازر في حقّهم كما حصل في أرمينيا

الجامعة اليسوعية في بداية القرن

الجيش العثماني في اليسوعية العام 1914

Select info S.A.L.
"Only Your Selected Information"

المسيرة
النجوى
Issue No.1458 May 26, 2014

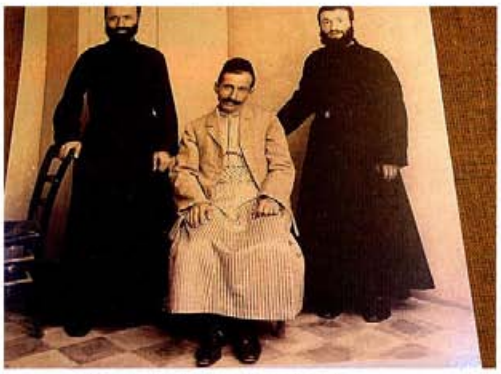
راهبان يسوعيان في الجامعة في العام 1916

توتل والأب الكسي باسيل

كما هنالك صورة ليتامى الحرب الصغار من المسيحيين، من العام 1916، مات أهلهم في المجاعة، كانوا يعملون ماسحي أحذية، جمعهم الآباء اليسوعيون من الشارع ليهتموا بهم. وقد بقي في لبنان من الآباء الذين لا يحملون جنسية من جنسيات أعداء الدولة العثمانية في الحرب، كالألمان والنمساويين والأميركيين (حتى العام 1917) أما الذين طردوا فهم الفرنسيون والإنكليز والسويسريون.

في العام 1914، كان رئيس الرهبنة اليسوعية يومها فرنسياً، لذا اتفق على تسمية الأب الأميركي ماك كورت رئيساً مؤقتاً، حتى إذا راسل واتصل وقبض عليه، ليس من خطر عليه، فيبعث الأب ماك كورت بصفته يسوعياً أميركياً والرئيس القانوني الموقت لجامعة القديس يوسف برسالة مؤثرة وشديدة اللهجة للقنصل العام للولايات المتّحدة، وظهر فيها يأسه الكلّي حيال الاعتداء العثماني. أعلم الأب ماك كورت السلطات الأميركية بأنّ العثمانيين طردوا اليسوعيين من ديرهم في جامعة القديس يوسف وأبلغها نتائج هذا القرار: «إثر طردنا من ديرنا في جامعة القديس يوسف، وهو ملك للإرسالية والكرسي الرسولي، بتنا غير قادرين على الحفاظ على الممتلكات الثمينة، ومنها المكتبة ومعدّات الطباعة وأدوات الفيزياء والمتاحف وأثاث الكنيسة... وأعتقد أنّه من واجبي أن أعلمكم بذلك وأن أرجو إليكم أن تعلموا بذلك كلّ من يهمّه الأمر حيثما يكون ذلك مناسبًا لكي يتحمّل كلّ مسؤولية أفعاله». وهنالك مخطوطة تفصّل «ممتلكات اليسوعيين» التي أوكلت إلى عائلتي ثابت وصفير، وهما عائلتان نعيشان بالقرب من الدير الأم للرهبانية اليسوعية في بيروت. شملت اللائحة أمتعة الآباء وبيانو ومصابيح وكؤوس قربان وكتباً وسجادات وثياباً كهنوتية وأزياء رسمية وشراشف، وكلها أشياء أخفيت عند الجيران لأنّ منازلهم كانت أقل عرضة للتفتيش العثماني.

وثمّة مخطوطة عن مستشفى «أوتيل ديو» ولم يكن اسمه كذلك في العام 1914، بل كان اسمه المستشفى الفرنسي في بيروت، وكانت فرنسا تبرعت بمال وأرض وبدأ البناء، ولكنه نهب كلياً وكان بعد ورشة، وقدّمت هذه اللائحة المفصلة أعداداً وأسعاراً إلى الفرنسيين لعلهم بعد وقت يستطيعون التعويض.

ومن أول جيش جاء إلى اليسوعية لتحريرها من الأتراك، أي الجيش الإنكليزي «بوستر» ملصق يظهر تحويلهم الصالة الكبيرة إلى صالة طعام مع ثلاثة مواعيد للأكل.

ومن الصور والأغراض صورة للأب أوغست جانيير كان مسعفاً في الحرب، وجدت شارة الصليب الأحمر الخاصة به والظاهرة في الصورة وعرضت قربها.

إنها المرة الأولى في لبنان تفتح فيها صفحة الحرب العالمية الأولى بهذا الشكل الجدي والعميق، وقد حاز المعرض رعاية وزير الثقافة كما حصل من الحكومة الفرنسية على «شارة 14-18». الشهادة الحمراء وضعت عند المدخل وهي شهادة من الحكومة الفرنسية بأن هذا المعرض ذو مستوى راق جداً ومحترف جداً. وهي شهادة للبنان.

ثلاثة أعوام من العمل الدؤوب والغبار ووجع العيون والتعب تمكن فيها الأب فيتوك والأستاذ توتل نبش هذا الأرشيف، لم يجدا ما يدلهما إلى الزجاجيات التي تعود إلى العام 1874 ولا إلى تاريخها بل وصلا تاريخ الحرب العالمية الأولى. في يوميات الآباء اليسوعيين اكتشفا أرشيفاً هائلاً، لم يقرأه أحد قبلاً، بعد عامين ونصف العام من القراءات نضجت فكرة المعرض وطرحت على الآباء، ويستمر في بيروت حتى 29 أيار، وسينتقل المعرض إلى فرنسا وتحديداً إلى بلدية باريس في ذكرى الهدنة في 11 تشرين الثاني المقبل، وسيمتد لمدة أسبوع مع محاضرات متنقلة يلقيها توتل. وهناك أيضاً سيشهدون على مآسي اللبنانيين والإرسالية اليسوعية في الحرب العالمية الأولى، واليتم ستكون له وجوه أطفال لبنانيين قتل الجوع والظلم أهلهم ولم يحضنهم إلا رفاق يسوع.

من الصور الفوتوغرافية في المعرض مدرسة في الهواء الطلق خلال الحرب وصورة نادرة للجيش التركي في الجامعة بعد طرد الآباء واحتلالها وجعلها مركزاً عسكرياً له

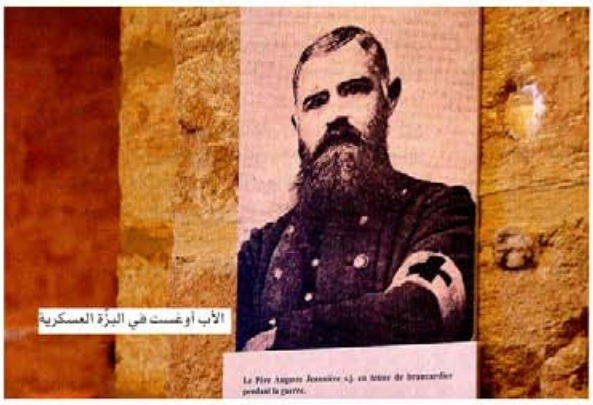

جرحى الحرب في حراسة الجيش العثماني

Select info S.A.L.
"Only Your Selected Information"